توماسو كمبانلا

لؤلفرد فير

للأستاذ عبد الكريم الناصري

إنا نصيبُ في بحوث توماسو كمبانلا[1] — وهو كبرونو[2] دومنيكي من جنوبي إيطاليا — ملامحَ من مقالات الإنجليز والألمان في العقل الإنساني ، أعني من النقد الحديث[3]. وُلِدَ هذا البطل الجريء من أبطال الإصلاح الفلسفي والحرية الإيطالية بقرية من « ستيلو » من أعمال كالابريا ، سنة ١٥٦٨ ، وتوفي في باريس ، سنة ١٦٣٩ ، بعد أن أنفق سبعة وعشرين عاماً في غياهب السجن بنابُلي ، بتهمة التآمر على الحكم الأسباني .

وكمبانلا تلميذ من تلامذة الشكاك اليونان . وقد علمته هذه المدرسة أن الميتافيزيقا تقوم على الرمل إن لم تُبْنَ على أساس نظرية في المعرفة . ومن ثمَّ تبحث فلسفته أولَ ما تبحث في المسألة الصورية .

تنشأ معرفتنا من مصدرين : التجربة الحسية ، والاستدلال العقلي ؛ فهي إما « تجريبية » وإما « نظرية » .

هل المعرفة المحصَّلة بالإحساس يقينية ؟

يرى أغلب القدماء أن شهادة الحواس يجب أن تُقبل ، ويلخص الشكاك شكوكهم في الحجة التالية : ليس للموضوع الذي تدركه الحواس إلا تكيُّفاً في الذات ، وإن الواقعات (Facts) التي تحصل — فيما تخبرنا الحواس — خارج النفس ، إنما تحصل على الحقيقة فيها . الحواس هي حواسي ؛ إنها جزء مني ؛ والإحساس واقعةٌ تحدث فيَّ ؛ وهي واقعة أعلمها بعلة خارجية ، في حين أن الذات المفكرة قد تكون علتها المبيِّنة ولكن غيرَ الواعية ؛ فليس هذا التعليل بأعسرَ من ذاك . وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف نستطيع أن نصل إلى علم يقيني بوجود الأشياء الخارجية وطبيعتها ؟ إذا كان الموضوع الذي تدركه حواسي لا يزيد على أنه إحساسي ، فكيف أبرهن على أنه موجود في الخارج ؟ يجيب كمبانلا : بأني أبرهن على ذلك « بالحس الباطن » . فالإدراك الحسي يجب أن يستمد صفة اليقين — التي لا يملكها في نفسه — من العقل : فالعقل يحيله معرفةً . قد يشك الميتافيزيقيُّ في صدق الحواسّ ، ولكنه لا يستطيع أن يتهم الحس الباطن . بيد أن الأخير يكشف لي عن وجودي بلا واسطة ؛ وبيقين لا ظل من الشك فيه . إنه يكشف لي عن نفسي كائناً يوجد ، ويفعل ، ويعرف ، ويريد ؛ ولكن هيهات أن يفعل ويعرف كل شيء . إنه — بعبارة أخرى — يكشف لي عن وجودي وحدوده معاً . ومن ثم أستنتج بالضرورة أن هناك كياناً يحدُّني ، أو عالماً موضوعياً يختلف عني ؛ أو (لا أنا) . وهكذا أبرهن بالمنهج البَعْدي a poteriori على حقيقة فطرية ، أو قبلية a priori أو سابقة على كل تفكير : وهي أن وجود (اللا أنا) هو علة إدراكي الحسي .

أتدحض هذه الحجة مذهب الشك ؟ ألحق أنها لا تبلغ من ذلك كثيراً ، وإن فيلسوفنا ليعترف بهذا ، ولا يدعي لنفسه النصر والغلبة . فإن قولك إن الحواس صادقة في إراءتنا الموضوعات الخارجية ، لا يلزم عنه بالضرورة أنها ترينا هذه الموضوعات على ما هي عليه . إن التطابق الذي تفترضه « التوكيدية »[1] بين تَخَيُّلِ تصوُّرنا الأشياء ونحو وجودها إنما هو — في رأي كمبانلا — نتيجة لتماثل (analogy) الموجودات ، وهذا بدوره نتيجة لحقيقة ممتنعة على البرهان : وهي أصلُ الوجودات الموحِّد . ثم إنه لا يسلم أن لدى النفس الإنسانية علماً مطلقاً بالأشياء . قد تكون معرفتنا صحيحة ، ولكنها لن تكون تامة أبداً . وهي إذا قيست بمعرفة الله تافهة أشبه بلا شيء . وقد كنا خُلَقاء أن نعرف الأشياء على ما هي عليه ، لو كانت معرفتنا فعلاً محضاً : لو كان

(١) Tommaso Campanella

(٢) انظر العدد (٦٤٥) من « الرسالة » .

(٣) أسمي (لوك) و (هيوم) وآخرون بعض كتبهم (بالمقالات) . مثلا : « مقال في العقل الانساني » ، « مقال في الطبيعة الانسانية » . وبعد (كانت) مؤسساً لفلسفة النقد ، أي نقد العقل والتحقق من حدوده وقواه ، وهل هو أهل لحل المشاكل الميتافيزيقية العليا . بيد أن أبحاث لوك وباركلي وهيوم مهدت لظهور فلسفة النقد وفهم هؤلاء الفلاسفة ضروري لفهم كانت (المعرب) .

(١) Dogmatism — التوكيديون هم القائلون بامكان معرفة الحقائق القصوى (المعرب) .

إذاً كنا خلقاً . إنا لأجل أن نعرف الأشياء على ما هي عليه ، أو بصورة مطلقة ، يجب أن نكون « المطلق » من حيث هو ، أي نكون « الخالق » نفسه . على أن معرفتنا وإن كانت مثلا أعلى لا يستطيع الإنسان تحقيقه — وهذا دليل بيّن على أن هذه الدنيا ليست بداره الحق — فإن من واجب المفكر أن يشتغل بالبحث الميتافيزيقي .

والميتافيزيقا ، أو الفلسفة الكلية ، باعتبار موضوعها ، هي علم مبادئ الوجود أو شروطه الأولى ؛ وهي ، باعتبار مصادرها وآلاتها ومناهجها ، علم العقل ، الذي يفوق العلم التجريبي يقيناً وسلطاناً .

والوجود أو الكينونة معناها الصدور من مبدأ والرجوع إليه . ترى ما هو هذا المبدأ ؛ أو بالأحرى ما هي هذه البادئ ؟ فإن الوحدة المجردة شيء عقيم . وبعبارة أخرى : ما هي شروط وجود الموجود ؟ الجواب :

١ — أن يكون « قادراً » على الوجود .

٢ — أن يكون في الطبيعة فكرة أو « مثال » ، هذا الموجود تحقيق له (لأن الطبيعة لا تحدث شيئاً بغير علم) .

٣ — أن يكون ثمّ « نزوع » إلى تحقيق المثال . فالقدرة والمعرفة والإرادة هي مبادئ الوجود النسبي . ومجموع هذه المبادئ ، أو (بالأحرى) الوحدة العليا التي تحويها ، هي الله . فالله هو القدرة المطلقة ، والمعرفة المطلقة ، والإرادة أو المحبة المطلقة .

وللمخلوقات أيضاً قدرة وإرادة وإدراك ، وحظوظها من هذه الصفات تتفاوت بتفاوت قربها من مصدر الأشياء . فإن الكون نظام متدرّج ، ينتظم العالم العقلي ، أو الملائكي أو الميتافيزيقي (الملائكة ، والنفس العامة ، والنفوس الخالدة) والعالم السرمدي أو الرياضي ؛ والعالم الزمني أو الجسماني . وكل هذه العوالم — حتى العالم الجسماني نفسه — تشارك في المطلق ، وتعكس عناصره الماهوية الثلاثة : القدرة والمعرفة والإرادة .

كلّ موجود فإنما يصدر عن الكائن المطلق ويسعى إلى الرجوع إليه . وبهذا المعنى يصحّ أن نقول إن الوجودات المتناهية كلها بلا استثناء « تحبّ » الله ؛ كلها دينية ؛ كلها تسعى إلى أن تحيا حياة الخالق اللانهائية ؛ كلها تنزع من اللاوجود ، وبما أنها جميعاً تحمل في نفسها اللاوجود بالإضافة إلى الوجود ، فكلها تحب الله أكثر من ذاتها . إن الدين ظاهرة كلية ، مصدرها توقف الأشياء كلها على الكائن المطلق ؛ وإن علم الدين أو اللاهوت ليسمو على الفلسفة سمو الله على الإنسان .

بالرغم من كل هذا الذي سلمه كبانلا للكاثوليكية ، وبالرغم من رسالته الموسومة « بالإلحاد المنتصر » ، كانت محاولاته في الإصلاح موضع ريبة الكنيسة ، فلم يتحقق منها شيء . وقد يثبت الفلسفة بعده أن تظفر بمزيد من التقدم في إيطاليا ؛ فتراها من ذلك الوقت تقيم في البلدان التي أنارها أو حررها الإصلاح الديني : في إنجلترا ، وعلى ضفتي الراين[1].

(بغداد) عبد الكريم الناصري

(١) يعد جيوفاني باتيستاڤيكو (Vico) — المتوفى عام ١٧٤٤ — أشهر الفلاسفة الايطاليين في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وقد عرف خصوصاً بكتابه « العلم الجديد » (نابلي — ١٧٢٥) وهو من أولى المحاولات لايجاد فلسفة التاريخ وقد حاول مفكرون محدثون قديرون من أمثال جالوفي ، وروسميني ، وجيوبرتي ، وماميانى ، وفراري — أن يعيدوا إلى إيطاليا ما كانت تتمتع به في عصر الاحياء من جاه فلسفي . انظر في ذلك رفائيل ماريانو : « الفلسفة المعاصرة في إيطاليا » :

Mariano: "La philosophie contemporaine en Italie," Paris, 1868

(المؤلف)

صدر

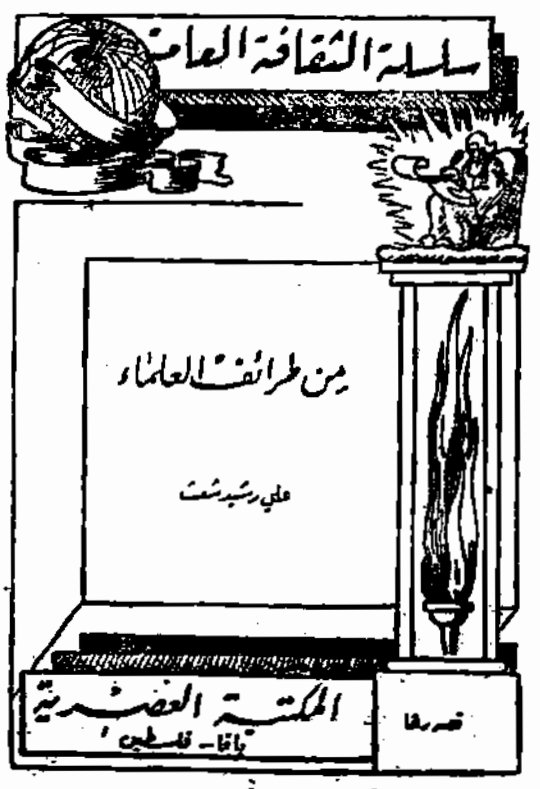

يطلب من جميع المكاتب ومن شركة اليمامة ص . ب ٥٤٦ بمصر